حكاية صوتٍ مغيَّب

أميمة الخميس

في الحكاية الشعبية أنَّ جنيةً قادمة من الجنوب الشرقي للصحراء، بداخل جذع نخلة مجوَّف، عشقتْ فتى من الإنس، فاستلبت (بقدراتها اللابشرية) عقلَه وأخفَتْهُ داخل قارورة، لتستأثر بغنائه الشجيّ دون بقيّة البشر.

هذا مجمل الحكاية دون زركشات التفاصيل التي تزدان بها الحكايةُ الشعبية. وقد قلتُ لنفسي: أخّاذةٌ هذه الحكاية، إلى الدرجة التي جعلتني أشعر بالصوت المغيَّب الذي يتوارى بين طيّات السّرد. صوتٌ لم يودَّهُ الراوي، حتى لا يفسد سطوة حضور الجنية أو قوّة سحرها.

فالحكاية تبدو غارقة في محيط الظلام: الجنيّة، قدومُها الليليّ، جوف النخلة، ومن ثمّ غياب الفتى عن الوعي إلى ظلام اللاوعي والجنون.

لِمَ لمْ يبادر الراوي إلى البحث عن المعادل الموضوعي الذي يقابل مفرداتِ الظلام، لكي تستتمّ الدائرة الكونية في ثنائية المتضادات؟

إذاً هناك صوتٌ مغيَّب، ولهذا سأحاول أن أقتحم التفاصيل التي تلوذ بقداسة التواتر وحرمة التاريخ، وأسعى من خلال صوت مغيب.. أن أنشئ تفاصيل الحكاية. فجنيّة اللاوعي المظلمة بحاجة إلى صوتِ الوعي.. صوت له كثافة الحليب ورغوته. فليكنْ هذا الصوت هو صوت فتاة إنسية كانت تتعشّق الفتى وتنتظره قبل أن يَغنّي أغنيته الأخيرة ويغيب.

حين رَوَيتُ الحكايةَ من جديدٍ على لسانها كان ما يلي أحدَ احتمالاتها:

«حكاية صوت مغيب»

ليت العصفور الأخضر أتمَّ الحكاية، أو ليته توخّى طرقاً أكثر حِرْصاً في نقلها. فهو قد سردها في تلك الساعة «السليمانية» التي يكتهل بها النهارُ، وتتحنّى لحيتُه بحمرة الأفق، ويرخي النخيلُ سعفَهُ وراء الجدران ليبترد.

مساقطُ الضوءِ حمراء، ذات عتمةٍ بنفسجية، وأوراقُ شجر الليمون تنكُّهُ الحديقة بلذعة سرّيّة.

أقلِّبُ وجهي في الأفق الشرقي بحثاً عن نجمة المساء الوشيكة الحلول، وأعلم أنّ الفتى لن يشاركني مدينتي هذه الليلة، وأنّه امتطى طائرَ الرّخّ ناحراً الشرْقَ.

عندها بزغ العصفورُ الأخضرُ فوق السور الشرقي، وألقى خَبَرَهُ سريعاً فقال: حين نحر الفتى مطالعَ الفجر، كان دربُهُ يلتمع بضوء اثنيْ عشرَ كوكباً، فارعاً كآخر الرّماةِ في كتيبةٍ انقرضتْ، وجهُهُ مرآةٌ، قلبُهُ بئرٌ، وتجري بين يديْه فرسي مطهمةً بالنّار، منَ تفرّسَ بها بضعَ ساعةٍ جاءَتْهُ من صنوف الصبابة والوجد ما لم يُصادفْهُ بشرٌ.

أوجستُ في روحي فرحاً.. فاعْتَدَلْتُ وأشرعت كفَّيَّ للخبر، فاسترسل الطائرُ عندما بادرته لهفتي ومَال بصوت معشّق بالخبث:

عَقْلُ فتاكِ الآن معبأٌ بقارورةٍ خُتِمَتْ برحيق الجنون.

بقيتُ مشنوقة فوقَ حبال الخَبرِ لوهلة، قبل أن أطالب بمزيدٍ من التفاصيل. لكنّ الطائر بادر إلى التحليق بسرعة تقترب من الوميض.

كيف السبيل إليه؟ وأنا معتقلة في منزل به سبعةُ غيلانٍ وأبوهم إنْ برز أيُّ جزءٍ منّي إلى الخارج، فسيلتهم أيّهم الجزء الذي برز..

لا سبيل لي سوى شعرِ الجدي (الشيرازي)؛ وعلى بلور النافذة ستخبرني عن مجهوله مرآتُهُ.

انتظرتُ فوق شوك اللحظات حتى لم يبقَ من اليل إلا ذُبالتُه، بينما كانت ذئبةُ الشوق الجريحةُ تعوي أسفلَ نافذتي بعنف، وتخرش لحمي بعوائها المفجوع المملّح.

عندها أحرقت الشعرة وقرأتُ الألواح.. وفوق البلور نفسه تبدَّتْ.. رويداً رويداً.. بدأت ملامحها تنجلي.. بجانب بركة من ماء الزهر. كانت مفضضةً بالسحر.. لامعةً بالوجد، في عبَّيْها تغرق غاباتٌ سوداء، وفي خلخالها وسوسة شطآن المشرق وتنهُّدُها.

تربّعت بجانب بركة من ماء الزهر، ووضعت رأس الفتى على حجرها، بينما بدا هو ضاوياً قد أسلمها إرادتَهُ.

كانت تغمس قطنةً بيضاءَ في الماء المزهر، وتنشقه إيّاها، وتدني قارورة قد اعتُقِلَ بها عقلُهُ إلى أذنه لتصبَّهُ فيها.

وعرفت أنها تعيد له عقلَه ليملأ لَيْلَها بغنائِهِ، ومِنْ ثَمَّ تخلبه إيَّاهُ عند تباشير الضوء.

استدار حول نخيل المشهد خفافيشُ الجنيّة الذين سيخبرونها بالتأكيد عن أوّل مركب للصباح.

فرغتِ القارورة.. وعادَ لَهُ لُبُّهُ.. واستوى قاعداً.. وانطلق في ترنيمات تسبق الغناء.

أرعبتني رنَّةُ ذلك الغناء الكهفيّ المطلسم بالحزن، والمنطلِقِ من صمت صَفيق. تردّدتُ ماذا أفعل، لكنْ عرفتُ أنَّه من الحيطة والحكمة أن أنتظر الصباح.

عشتار، نجمة الصبح أو تلك الخلاسية المتورِّدة ابنة الضوء والعتمة، كانت تبثُّ دعوتها صريحةً دون أن تلقى استجابةً واضحةً منّي، أو لربّما لم أحاول أن أصغي لتلك الدعوات لعلمي أنني سأصبح بحاجة إلى كثير من الهدوء والاستسلام، إلى سقوف الوحدة والوحشة لأستطيع استكناهَ تلك اللغة التي لا تنفك عن بعثها لي كلَّ ليلة.

لا فرار الآن من الجلوس ومن ثَمَّ الإنصاتِ والبحثِ بالداخل عن تلك البركة الضوئية المضبّبة التي تشعُّ بحديثها الخاصّ. ولا فرار من الاستماع العميق الهادئ الذي يجعل الروحَ مشدودةً وحسّاسةً كجرسٍ صينيّ عملاق.

التقاط الإشارة... تلك الإشارةِ المنعتقة من مأزق اللغة، والجديدة كسحاب رقيق يسبق الشروق.

يجب أن أقفز فوق حاجز اللّغة، وأنطلق من مضمار الطقوس، فاللّغة في هيئتها الأولى لم تكن سوى مجموعة طقوس فاعلة متفوّقة على قضبان اللّغة. وبدأتُ الطقس (مازال الحديث على لسان البطلة). فلن يعود إلا برسالة صاخبة الإلحاح إلى الكون.

هيّأتُ دميةَ الصلصال، وغرزتُ مكانَ القلب حصاةً كانت سابقاً جمرةً متّقِدةً في بركان قديم حيث كانتْ تبرق في الظلام باحمرار ولوعة!

وفي علبة صُنِعَتْ من حرير صيني، وضعتُ حصاتيْن متجاورتيْن، وداخلتُهما لتُكوِّنا ذلك «الهارموني» المتداخل الذي يوحي بأنهما استُخْرِجَتا من الجبل نفسه وأنّ مآلَهما إليه أيضاً، ومن ثَمَّ جلّلْتُهما بأوراقِ الوادي الرَّطب.

وكان مفتاحي إلى هذا كلّه هو الرمز. فَلمّا كانَت اللغَةُ فاعلةً، وهي لغةُ الكيْنُونة والتحوّل، فلا بدّ من أن يكون الطقسُ أيضاً فاعلاً بل يفوق فاعلية اللغة نفسها، لأنه يمتلك عفوية الخلق وطزاجَتَهُ.

وعندما استدار القمرُ دورتُه الأولى، دفنتُ الحيَّةَ الفضيةَ في الوادي الذي يحمل روحَ الأم الكبرى، وأفنيتُ بها شرورَ النفس البشرية جميعها: الخوف، الغيرة، الحسد، تلك التي لا بد أن تقود إلى الخبث والذل والاستجداء.

وكنت في محاولاتي للاستجلاء أحرّك خيط البندول دائماً، ليتبع الطيورَ السوانحَ منها والبوارحَ، وما أشْأَمَ منها وما أيمن، لكيْ أستخلص من هذه الاشارات تلكَ التي ستهبني ترياقَ الخلاص.

وكان هناك دمية موسيقيّة صامتة، لا لشيْء إلاّ لأنّها ببساطة لا تمتلك فماً لتتكلّم. فكانَتْ تهزّ رأسها ملاحقةً السلّمَ الموسيقيَّ الذي ينطلق من مفتاحها، لترقص عندها رقصة الدراويش المشحونة بالألم والمناجاة، تلك المناجاةِ التي ستقودهم حتماً إلى الكشف وَمِنْ ثم الاتحاد.

ولم أتوقّف.... (ما زال الحديث على لسان البطلة)

وعند طَلْحَةٍ في غابة للطَّلْح، وهي طلحة عظيمة ومهيمنة، عقدتُ بشريطٍ من خماري «عقَدةَ المطلوب». ويبدو أن الكون من حولي قد انتبه إلى دبيب طقوسي فشاركني بإرسال قارورتيْن زنجيّتيْن لوضع العطور، فربطتُهما معاً فكانتا شرعيّتين تماماً كالذكر والأنثى.

وبالتدريج ابتدأ يومي بالتحوّل إلى طقس متّصل.. تكاد لا تفوتني شاردة دون أن أحاول أن أُفسدَ بها ترياقَ الجنون الذي نهب عقلَ فتايَ. وابتدأتِ البشاراتُ:

كانت تظهر للوهلة الأولى في شكل وَمضاتٍ خاطفة على جدار المخيّلة، ومن ثم الأحلام، ورؤيا تهتف بين حين وآخر. وأصبحتْ عندها روحُ المساء تحمل أصوات أجنحةٍ كأنها ترفّ من مناطق نائية.

وكان «رفائيل» حصانُ المطر يصهل بولاء.. بعنفوان..

وتهطل السحابة تلو السحابة فتلون «الريّاضَ» بربيع لم تَخْبرهُ من قبلُ، فتجري الأودية متنهدة عَطَشَ الدهور.

وكانت عشتارُ أيضاً، تلك الخلاسية المتوردّة ابنة الضوء والعتمة. وقيل لي إنّ النجوم تومض في ساعة الإجابة، لكنّها ذلك الفجر لم تكن تومض بل كانت ترقص منتشيةً بتوقّع بشارة.

ورجعتُ إلى بلّور النافذة أنتظرُ فوق شوْك اللحظات. وكما ينشقُّ دربُ الحياة عن الجنين، انشقّت البوابةُ عن فَتَايَ، وعاد.. بعد أن أزالت آخرَ قطرةٍ من ترياق الجنون من دمه نجمةٌ.. نجمةٌ صغيرة مرحةٌ وشقيّة.

لقد كانت تلك الطقوسُ هي الضفيرَة التي جُدِلتْ حولنا فأعادتِ التئامَ دائرتنا.

وبالرغم من أن الشهر كان السابع، وفي هذا الشهر تقف الثعابينُ على ذيولها من شدّة الحرّ، فإن «رفائيل» أصرّ على أن يشارك برقصة مَطَرِيّة سريعةٍ وخاطفة. وفجأةً:

أُزيلت الحواجزُ بين الحلم والواقع، بين برزخ البحر المالح والينبوع. انفلت كلُّ شيء وانطلق.. تماماً كما سينطلق «جوج ياماجوج» من خلف سور الصين العظيم.

ولم يبق سوى أن أفتح سلّتي وأعدّ الهدايا المتواترة بين شهقاتِ ذهولي وامتناني.

تمّت

لا بأس ، النهاية مغرقة في السعادة لكن هذا هو دأب الحكايات الشعبية التي تلتمس لها مخرجاً يوازي التيارات الكونيةَ المظلمةَ المهدِّدَةَ بالموتِ والشحوب.

وهي الشيفرة الغامضة عينها، التي تجعل البشرَ في أوقات الحرب يتعاطَوْن الحبَّ بشبق، وكأنهم يواجهون طائرَ الموت المهيمن بالمزيد من فعل الحب / الحياة / التناسل. عندها ترتفع نسبة المواليد بصورة واضحة.

وأمّا عملية الكتابة، أي التخلّق والاحتشاد والتشكّل، فهي بحاجة إلى زمن تراكمي يحوّلها من مادتها الخام على الشِّفاه والألسن لينقلها على الألواح المرصودة للذاكرة الشعبية.

لم ترضخ الفتاةُ لمأزق الظلام، بل خاتلتْ أحزمته المضروبةَ حول مصيرها. واستطاعت من خلال كيْد الأنثى العشتاري أن تعاقر مصيرَها، بكل التصميم والتحدّي والتمرّد... وهو التصميم الذي من شأنه أن يقودها بالتأكيد إلى سدرة المنتهى!